بين المطبخ والمطبخون: تأمّلات في نسويّة مرتبكة!

د. هُنَيْدة غانم*

لخّصت إحدى أعضاء برلمان جنوب أفريقيا الفرق بين مَطالب الحركات النسويّة في الغرب، ومَطالب الحركات النسويّة في العالم الثالث، بقولها إنّ الأولى تُطالب بالخروج من المطبخ إلى الحيّز العامّ، في حين تطالب المرأة في العالم الثالث أن يكون لها مطبخ!

بالطبع الصورة ليست بهذه البساطة، إذ إنّ الكثير من النساء في عالمنا الثالث بعامّة، وفي وطننا كذلك، لا تملك كلّ منهنّ مطبخًا واحدًا فقط، بل ربّما تملك اثنين، أو حتّى ثلاثة. وتكفي نظرة إلى بيوت الأزواج الشابّة التي تُبنى اليوم في المثلث والجليل ومدن الضفّة (أسمح لنفسي بالحديث عنها، وذلك أنّي أعرفها جيّدًا) لنجد أنّ بيوت هذه الأزواج، لا سيّما المتعلّمين والمثقّفين من بينهم، تحتوي، على الأقلّ، على مطبخين تعكس وظائفُهما واستخداماتُهما الاجتماعيّةُ العلاقة المركّبة القائمة بين المرأة والحيّز والثقافة، وتتقاطع، من خلالها، الحاجة إلى الاستعراض، بوصفها قيمة ريفيّة ذكوريّة، مع إعادة هندسة وتقطيع الحيّز البيتيّ (الخاصّ!) بما يتواءَم مع التغيّرات الثقافيّة، فيقتطع جزءًا ممّا كان في المعتاد أنموذجَ الحيّز الخاصّ ويحوَّل إلى حيّز عامّ استعراضيّ، بينما تُدحر المرأة إلى أطراف البيت المعتمة والمنزوية بوصفه حيّزًا خاصًّا جديدًا.

في المعتاد، يقام المطبخ الأكبر في مكان بارز من البيت؛ أو كما يقال في اللغة الدارجة: "في صدر البيت". وهو مُعَدّ -في الأساس- للاستعراض العامّ، حيث يؤخذ في الحسبان عند إقامته قطْعُ الطريق أمام مجرّد إمكانيّة تجاهله. وفي المعتاد كذلك، يكون المطبخ الكبير نظيفًا جدًّا، ومصنوعًا بفخامة وأبّهة كيتشيّة (عل نسق الكيتش!)، ولا ينقصه شيء (سوى الاستخدام!). أمّا المطبخ الثاني، أو كما درجت نساء فلسطين الداخل على تسميته: "المطبخون"[1] (مع التشديد على الخاء الإشكنازيّة)، فهو عبارة عن غرفةٍ بالغةِ الصغر، واقعةٍ في إحدى زوايا البيت المنزوية. وهو مهندَس بطريقة تضمن عدم انكشافه إلى العيون الغريبة المتطفّلة، وفيه تقوم المرأة بكلّ مَهامّها المتعلّقة بالطبخ ومشتقّاته، وتعيش فيه في فسحة من الحرّيّة والانطلاق، فلا تأبه لأدقّ التفاصيل ولا لصورته وتنظيمه، لأنّها تعتبره حيّزَها الخاصّ جدًّا ومكانَها الحميم، وقد جرت العادة أن تحميه بلغتها الذكيّة إذ تقول: "هنا أعمل ما بدا لي"؛ أي: ليس لأيٍّ كان أن يحاسبني على فوضاه (ألم يقل درويش: "حرّيّتي فوضاي"؟!).

يعيش المطبخ والمطبخون في تناغم تامّ وحقيقيّ، فلا يعتدي الأوّل على خصوصيّة الثاني، ولا يتطفّل الثاني على أبّهة الأوّل؛ فلكلّ مقام مقال، ولكلّ بيت مطبخان. بالطبع، لا أقصد في حديثي الإهانة، وأعتذر منذ البداية إن كنت قد أثرت الحفيظة. غير أنّ وجود المطبخين في عالمي ليس مجرّد حدث عابر، إذ إنّه يحمل الكثير من الدلالات التي أرغب في أن أقف عندها وأستكشف دلالاتها.

أوّلاً: قبل أكثر من قرن، وبعده كذلك، كانت المرأة في الريف الفلسطينيّ تطبخ على الحطب، ممّا يعني أنّ مطبخها كان الحيّزَ الخارجيَّ للبيت الذي لم يكن أصلاً سوى غرفة أو غرفتين مُعَدَّتَيْن للنوم ولاستقبال الضيوف. وقد بدأ هذا الوضع يتغيّر تغيُّرًا تدريجيًّا مع تحوُّل الأوضاع المادّيّة وتحسُّنها،

[1] "مِطبحون" هي كلمة عبريّة تعني المطبخ الصغير.

ممّا سمح بتطوير البيت وخصخصة أجزائه لوظائف جديدة، فاستُدْعِيَ الحمّام الذي كان يقام في الخارج (ليس من باب المصادفة أنّنا ما زلنا نطلق عليه "بيت الخارج")، ليتفضّل ويكون جزءًا من البيت، واستُبدلت موقدة الحطب بفرن الغاز أو الكهرباء، فلم يعد البيت ساحة نوم وتخزين، بل غَدَا بنيانًا وظائفيًّا يستجيب بشموليّة للاحتياجات البيولوجيّة والنفسيّة. لا بدّ من التنويه هنا أنّه، في ما سبق، عاشت المرأة ظروفًا اقتصاديّة قاسية، وكانت حقًّا بحاجة إلى مطبخ، بَيْدَ أنّ الحركة النسويّة والنسائيّة (التي أتت من علياء الطبقة الاجتماعيّة المرفّهة، وكان لها -بالطبع- مطبخ) رفعت شعار نزع الحجاب والخروج إلى الحيّز العامّ، لتمرّ شعاراتها (على أهمّيّتها القصوى) من غير أن تترك أيّ صدى على جمهور عامّة النساء.

ثانيًا: دخلت المرأة الريفيّة إلى المطبخ، ولكنّها، بدل أن تعيش رفاهيّة البيت بعيدًا عن نار الحطب، وجدت نفسها محاطة بأربعة جدران وممنوعة من الخروج الحرّ، وزاد الطينَ بلّةً تشابُكُ واقعها القوميّ وحالة الصراع المحتدم الذي زاد المخاوف من تعرّضها للأذيّة وكرّس التشديد على إبقائها رهينة البيت. هنا كان من الطبيعيّ أن تدعو الحركات النسويّة المرأةَ إلى الخروج من المطبخ، لكن الأهمّ كان المطالبة بتأمين الخروج إلى حيّزٍ آمِنٍ لا إلى حيّزِ حربٍ فيه قُوًى تَستهدفُ -أوّل ما تستهدف- بيتَها وعائلتَها وكيانَها. وبالطبع كان الوجود الاستعماريّ الصهيونيّ في فلسطين أوّلاً، والحكم الإسرائيليّ العسكريّ لاحقًا، مظلّةً سوداءَ تُظلّلُ واقعَ الفلسطينيّين -نساءً ورجالاً- وتُهدّد كينونتهم. وكان لا بدّ أن تتصدّى له النساء والرجال، لكنّ المشكلة أنّ النساء شدّدنَ على الحيّز العامّ حتّى نسينَ المطبخ!

ثالثًا: تحوّل تشديد النساء على البعد الوطنيّ أو الطبقيّ والقوميّ، بعد انتهاء الحكم العسكريّ، إلى مجرّد صدى للشعارات الحزبيّة؛ وإن كان لهذه الشعارات جمهورها المتحمّس في لحظة تاريخيّة

معيّنة، فإنّ تَماهي النساء معها أدّى إلى تهميش صوتها النسويّ وتحويلها لاحقًا إلى مجرّد أصوات "ظلٍّ" لحزب سياسيّ، حيث ينظر إليها عامّة النساء على أنّها مجرّد جناح حزبيّ حينًا، أو زينة انتخابيّة أحيانًا، وهي -على أيّة حال- ظاهرةٌ ما زالت اليوم في كلّ الأحزاب الوطنيّة والسياسيّة العاملة في فلسطين 1948. هذا الواقع لم يُنتِج نسيانًا للمطبخ فحسب، بل أنتج كذلك تعاملاً شكلانيًّا معه، ونفورًا ممّا يمثّله، باعتباره رمزًا للقمع والاستعباد الذكوريّ، وهو ما أسهم في تأسيس حالة اغتراب شديدة بين الناشطات النسويّات ومحيطهنّ، وعزّز التنافسَ الشخصيّ لا الفكريّ بين النساء المنتميات إلى "حلقات نسويّة" حزبيّة مختلفة، وأنتج تسابقًا شديدًا بينهنّ على أحقّيّة "تمثيل" النساء من منطلق النظر إليهنّ كقوّة انتخابيّة. هذا التسابق كان لا بدّ له أن يُدخل النساء إلى دوّامة الانشغال بالأمور الهامشيّة والجانبيّة الشكليّة، وترتّب عنه خلطٌ مربِكٌ بين العملِ النسويّ بوصفه نتاجَ فكر نقديّ تحرّريّ شامل، والفعلِ الحزبيّ التنافسيّ العينيّ والضيّق.

وفي معمعة الصراعات (البارزة حينًا والمستترة أحيانًا) بين نساء الأحزاب المختلفة اللاتي يتحدّثن باسم النسويّة، وفي ظلّ غياب عمل نسويّ وحدويّ منافح، كانت نساء بلدي يتفنّنّ في هندسة حيّزها "الخاصّ" (الذي لا نُقِرّ أصلاً بوجوده كنسويّات -فالخاصّ هو عامّ!) ويَستَمِتْنَ في تدبير قروض بنكيّة من أجل أن تحوّل مطبخها إلى حيّز عامّ أكثر كبرًا وأبّهة، ولترسم بيديها من جديد حدودًا اجتماعيّة فاصلة بين العامّ والخاصّ لا ترتكز على القسمة التقليديّة بين العامِّ -بوصفه حيّزًا خارج البيت-، والبيتِ بوصفه "مؤسّستها الأولى"، بل بين جدران بيتها وداخل أروقته، لتتحوّل من السجن المنزليّ إلى السجن الإراديّ في زنزانة تسمّيها بتلذُّذ: "مطبخون"!

ليس المطبخون إلاّ تعبيرًا عن أزمة واقع تزاوجت فيه الثقافة الذكوريّة والرأسماليّة الاستهلاكيّة، وتحوّلت فيه القرية أو المدينة إلى بديل للدولة، لا سيّما أنّ الأخيرة عمدت -مع سبق الإصرار

والترصّد- إلى سدّ طُرُق الحِراك الأخرى. في هذا الواقع، تكدّ المرأة والرجل في إطار محيطهما الضيّق من أجل تأكيد نجاحهما وتميُّزهما، من خلال مراكمة المقتنَيات المادّيّة وترويجها بوصفها مؤشّر التميّز والنجاح. ولا تنبع المشكلة من المراكَمة المادّيّة في حدّ ذاتها، وإن اختلفنا في مدى أخلاقيّتها، بل في دورها في إعادة تأكيد دَوْر المرأة الدُّونيّ والتابع في إطار الثقافة الاستهلاكيّة الرأسماليّة الضيّقة، إذ إنّ المطبخون (الذي كان استحداثه وليدَ الرغبة في التباهي) هو أنموذج مثاليّ لإعادة إنتاج الدور الاجتماعيّ بما يتواءم مع الثقافة الاستهلاكيّة من غير تغيير المنظومة الثقافيّة الذكوريّة، بل وتأكيد تلك المنظومة بشكل أكثر تعقيدًا، من خلال تذويت المرأة لها بوصفها جزءًا من **خَياراتها الطوعيّة**، إذ إنّ المرأة -في نهاية المطاف- تتباهى أكثر من الرجل بإعادة هندسة الحيّز بأبّهة تأخذ في الحسبان مبدأ تقسيمه الأدوار التقليديّة. هذا الواقع، الذي هيمنت فيه الثقافة الاستهلاكيّة، وتشابكت مع القيم الذكوريّة والريفيّة، هو واقع جديد إلى حدٍّ ما، وهو واقع يتطلّب أن تأخذه الحركات النسويّة بجِدّيّة كاملة، لئلاّ تصحو بعد عَقد من الزمن على واقع مغترب عنها تمام الاغتراب، وهو واقع يتطلّب صياغة رؤية نسويّة جديدة لا تخاطب النساء بلغة نسويّة تقليديّة ترى فيهنّ "ضحايا" ثقافة ذكوريّة فجّة، بل بوصفهنّ شريكات فاعلات في هندسة قمعهنّ وتقبُّله بوصفه مؤشّرًا تحرُّريًّا؛ حيث لن يعنيهنّ كثيرًا ما إذا كان الأمر نتاج وعي كاذب أو هيمنة ذكوريّة ذكيّة؛ إذ ماذا يهمّ المرأةَ المسكونة بهاجس المطبخون، في نهاية الأمر، وإن أشارت كلّ الحركات النسويّة في العالم إلى عالمها بأنّه عالَمٌ قمعيٌّ ما دامت ترى فيه واقعًا جميلاً؟! أليس الوعي الكاذب أجمل بكثير من الوعي الحقيقيّ، إن كان يحمي -في نهاية المطاف- من متاهات الصراع ومخاض التغيير؟!

* **د. هُنَيْدَة غانم** هي المديرة العامّة لمركز مدار- المركز الفلسطينيّ للدراسات الإسرائيليّة، رام الله؛ محاضِرة في عدد من الجامعات الفلسطينيّة والإسرائيليّة في موضوع علم الاجتماع.